

نهاية الاستشراق وبداية  
الاستغراب  
"من الصراع إلى التقارب" نماذج من  
العلوم الإنسانية

بقلم أ/عبدالعزیز رأس  
مال

\* نشأة مصطلح الاستشراق (1) :

يؤكد آربري (Arbery) أن كلمة مستشرق كانت تعني في 1683م، (أحد أعضاء الكنيسة الشرقية أو اليونانية)، في 1691م كانت تعني الشخص الذي يعرف اللغات الشرقية، وفي تقرير ماكولي تعني عبارة "مستشرقين" أولئك الذين نادوا بالتعليم و الأدب الهنديين.

أما المستشرق الألماني "باريت" (Paret)، فيرى أن الاستشراق يختص بفقهاء اللغة خاصة، ومشتق من كلمة "شرق" التي تعني مشرق الشمس، ومن ثم فهو علم الشرق، و الشرق نسبي، فهو بالنسبة للألمان ، يعني العالم السلافي ، العالم الواقع خلف "الستار الحديدي" (Osteuropaforschung). أما الشرق الذي يختص الاستشراق، فمكانه جغرافيا في الناحية الجنوبية الشرقية، و المصطلح يرجع إلى العصور القديمة، ويتحدد من البحر الأبيض المتوسط، و يختص أيضا بشمال غرب إفريقيا الذي يسمى بالمغرب، أي مغرب الشمس ، أما عند ديتريش (Dietrich) ، فتعني العبارة الباحث الذي درس الشرق و تفهمه من خلال اللغات الشرقية، و هي عديدة منها: -اللغات السامية و غير السامية، منها الميتة ومنها الحية، منها ما هو مهم ومنها ما هو أقل أهمية، و اللغة العربية أهم اللغات الشرقية السامية، لغة التراث الفكري، لغة

القرآن الكريم و الدين الإسلامي، ويشير نجيب العقيقي إلى أهمية الاستشراق، والوسائل و المنشآت العلمية التي دعمته، حتى أصبحت تؤرخ به الحضارة الإنسانية. أما قاموس " أكسفورد الجديد" فيحدد المستشرق (Orientalit) بأنه من " تبحر في لغات الشرق و آدابه".

بينما "إدوارد سعيد" فيحدده على أنه: "مدرسة للتأويل"، حيث توجد أدواتها في المشرق، بحضارته و بأماكنه<sup>(2)</sup>.

لا ننسى في هذا المقام أن نذكر أن أول مؤتمر للمستشرقين قد عقد سنة 1873م في باريس، و صدر عنه مجلدان في ثلاثة أجزاء و اللذان طبعوا في باريس بين سنتي 1876-1879م (ميشال جحا:ص280).

### \*-الشرق و المغرب من الاختلاف إلى الائتلاف :

يرى "كينيت" (E Quinet) بأن آسيا تزخر بالأنبياء ، وأوروبا بالأطباء ، ذلك في كتابه: "Génie des religions" P47، و يضيف "هيجو" (V. Hugo) أن الشرق، سواء كصورة أو كفكر أصبح يأخذ كل الاهتمام (Euvres Complètes) "P580 T1. الغرب هو المساعد ، الشرق هو المريض ، الغرب هو المشاهد ، هو القاضي ، هو هيئة التحكيم ، الخاصة بتقييم كل وجهات السلوك الشرقي .

هاته المجتمعات هي مثل المجتمعات الغربية تعددية في تصورها للأشياء، على عكس هتذا الإلحاح الغربي الذي يتصورها مختلفة عن ماهيته، أسيرة نظرة أحادية في التفكير، و التي تجعل الغوب أعمى عن توجهات النظر المختلفة التي تتصارع.

الحشية من الحضارة "الأخرى" على أساس الزجوع إلى تحديد هوية النمط الثقافي الأصلي، يمر عبر شرعية الاحتقار و الإبعاد، و التعالي، أما احتواء "المختلف" بين الطرفين المتصارعين ثقافيا :-الشرق/الغرب، و الذي يجعل كل واحد يتمسك

بموقفه، فيتيح اللقاء مع الآخر حيث يؤدي إلى تقييم صحيح للحضارة، المستقبلية، لنصل إلى ظاهرة الثقافة، و إبعاد النمط الأصلي.

على هذا الأساس هناك توجهين ثقافيين :-شرق/غرب، وهذا في حد ذاته نقد موجه للعالم المعاصر، و يدور حول موضوعية معرفية للذاكرة، و لفضاء النسيان في نفس الوقت (على سبيل المثال ما يتعلق بالتطورية، والنسبية، والعلوم ذات الأساس الآلي) من هنا نعرف الغرب على أساس نسق من القطيعة مع التقليد، والميتافيزيقيا، و الغنوصية، و الكونية Cosmologie على كل المستويات نحس أن هناك منطقا خاصا بالانقطاع والقطيعة، وهذا من خلال التعارض التالي:

الشرق يظهر كوجه للاتصالات، للمحافظة، بعبارة واحدة للتقليد، ولعدم التغير/الغرب: الانطلاق، التآجج، التحرك، الحدائة العلمية، السرعة في التطور، تنوع المعارف، إرادة الاكتساح. لكن الشرق هو شروق الشمس المنتصرة، وهي في حالة حبور، و انسجام و شهرة، و من ثم فنقد العالم الغربي يمر عبر "أخذ الكلمة" من طرف الشرقيين أو يمر عبر انتقال مجازي و رمزي استعمال عبارة "الغربيين" أو "البيض" لها دلالتها في كل الأدبيات مثلما نقول "الشرقيين" أو "الجنس الأصفر"، فالشرق يظهر كواقع روحي مثل الغرب، الذي يميز عن آسيا و الصين كوحدة "سلالية"، جيو-سياسية و ثقافية".

كما أن الحراك و السفر و النفي هي مسائل توظف كتعابير مجازية عن عدم الرضى الفردي، و كضرورة للتنوع، و ذلك في مواجهة الحدائة الغربية التي لا تتكيف مع الوتائر البطيئة و التجذر العقيم للإطار التقليدي.

تعود المواجهة بين الغربي/الشرقي ، و الشرقي/المجث عن الحضارة ، لتظهر على السطح في إطار النزوع إلى اكتساب المعرفة العلمية و التقنية ، و المشاركة في الحضارة العالمية.

فالأدباء و المفكرون ، حاولوا القيام ببحث إمكانية التركيب بين المشرق و المغرب ، أي التمييز بين الشكل الغربي ، و المحتوى الشرقي ، بمعنى محاولة تطبيق شكل المعرفة الغربية في محتوى المعرفة الشرقية ، وذلك بالتحزر الثقافي و الروحي ، المسهم في التحزر السياسي ، و من ثم فالترعة الإنسانية العالمية تمر عبر ممر حتمي هو "الخصوصية أو القومية الثقافية" ..

إن الأفكار الثورية الغربية المجتة من إطارها(محتواها) تصبح في الشرق أفكارا جنونية (لا ننسى دور الجنون في العالم)،

إن الشرق لا يستقبل إلا العقل ذي المستوى المتوسط في أوروبا ، أو الدرجة الدنيا للحضارة الغربية ، وذلك من خلال طاقة مهدورة دون أساس ، و دون وجهة واقعية ، أي ما يسمى ب "الحضارة المهجينة"، و التهجين في حد ذاته واقع ثقافي ، وليس سنلاي وهو محو لكل عَبرية أو تنوع.. أما العالمية "Universalité" فهي من مهمة المثقفين ، بينما الجماهير الشعبية لا تستطيع أن تتعدى في تمثلاتها "المركزية-السلالية" (Ethnocentrisme) أو الخصوصية ..<sup>(3)</sup>

لقد شرح إدوارد سعيد الاستشراق من خلال مختلف التيارات الفكرية التي سادت في القرن 19 ، و في القرن 20م ، حيث تعددت رؤى المستشرقين ، و تعددت مجالات عملهم و مناهجهم ، والتي ربطت الاستشراق كميدان للبحث و علم السياسة كإطار للتحليل نظرا للحاجة التي ظهرت لدى المجتمعات الإحتلالية ، لمعرفة هذا الشرق للسيطرة عليه، و خاصة فرنسا و بريطانيا ، و فيما بعد الولايات

المتحدة ، لذلك تم إيفاد بعثات مختلفة من الساسة والعسكريين و الهواة و العلماء ، الذين اكتشفوا الإسلام ، وأخذوا في إصدار الأحكام حول الإسلام وحول النبي محمد-ص- ، ثم توسعت لتشمل المجال الجغرافي ، ليصبح هذا المجال رهانا تتصارع عليه الإيديولوجيات و الأفكار والمسلمات ، و من ثم كان هناك استشراق خفي، وآخر جلي ، فبينما يتضمن الأول الأسس المعرفية و الفلسفية التي يحتويها هذا الاختصاص، فإن الثاني تضمن المعارف الموضوعية (التاريخ، علم الاجتماع اللسانيات، الآداب .. الخ) ، ومن خلال بعض النماذج من القرن 20 م، لاحظ أن الجغرافيا أصبحت أداة لمعرفة الشرق ، و أصبح هناك تعليم خاص به و بحوث خاصة به ، و إدارة خاصة له .

صار الشرق نسق من التماثلات التي توّطرها مجموعة من القوى التي دفعتها إلى علم الغرب، و إلى وعي الغرب وإلى إمبراطورية الغرب، و يظهر من هذا التحديد أنه سياسي بالدرجة الأولى، حيث يبدو الاستشراق وكأنه نتيجة قوى ونشاطات سياسية .

الاستشراق ليس مذهبا وضعيا للشرق الموجود في كل مرحلة في الغرب ، بل هو تقليد جامعي قوي ، ومجالات و مصالح محددة من طرف الرحالة ، و المؤسسات التجارية ، و الحكومات ، و الغزوات العسكرية، أما قراء الروايات، و مبدعي الحكايات عن المغامرات، و المختصون في التاريخ الطبيعي والحجاج فإن الشرق هو نوع خاص لمعرفة الأماكن ، و الحضارات النوعية<sup>(4)</sup> .

يؤكد إدوارد سعيد " أن الاستشراق ينبغي أن يرقى إلى التعامل الفعلي بوصفه جزءا من التاريخ العلمي ، ومسائله و همومه ، لا بوصفه معلومات سرية أو ساحة حرب بينه و بين الشرق ، فالسياسة التي ترد في العرف العربي -الإسلامي

السائد إلى مواجهة متصلة مع العدو شأن لا تاريخي بامتياز، و نسبة الاستشراق إلى هذا اللا تاريخي ، تجعله هو نفسه لا تاريخي ، و بالتالي فإن أعداء الاستشراق يقعون في نفس أخطاء المستشرقين في اختزال الوقائع و تنمية ثقافة الحقد.

هناك نقد لا يتسم بالتناسق عند أحد كبار المفكرين العرب (صادق جلال العظم) ، فهو ينتقد المسلمات التي وصل إليها إدوارد سعيد ، و التي صنفها في قائمة الثوابت، خاصة فيما يتعلق بتمجيده "للويس ماسينيون"، و "جيب" إلا أنه يتوجه في القسم الثاني من كتابه إلى الحركات التي يسميها "إسلامانية" -تعبير الكاتب- و التي صنعت عنوان كتابه "الاستشراق المعكوس" ، هذا الوصف وإن كان يعكس بعض القضايا الجوهرية التي تعبر عن ضيق الأفق الفكري لدى بعض ممثلي هذا التيار و ضيق البعد في مجال الممارسات ، إلا أن هذا الكتاب الذي ألف في 1981م ، يدمج بطريقة قسرية بعض المفكرين في الأنتلجانسيا الإسلامية مثل : أدونيس، أنور عبد الملك وغيرهم..

إن الكتاب نقد للاستشراق ، و الاستشراق المعكوس، و لإدوارد سعيد، وللإسلامانيين، و لكنه لا يعدو سجلا إيديولوجيا على أنساق فكرية متباينة ، ولكنها أكثر تنظيما<sup>(5)</sup>.

لقد كان الاستشراق الألماني ، نشطا ، خاصة في مجال التصوف و الأدب، ينهنا فايشر أن اللغة الألمانية في حد ذاتها ذات طبيعة شرقية ، وهذا ما يقرها من اللغات الشرقية ، و خاصة اللغة العربية، ويرشح لنا الضدمة التي وقعت للشعراء الألمان في البداية، و خاصة "غوته" Goethe ، لكنهم ما يفتأون يجبوها ثم يكتبون عنها، أو ينظمون أبياتا عنها، أو يؤلفون مسرحيات مثلما فعل "غوته مع النبي- ص- أما تأثير التصوف الإسلامي على التصوف المسيحي فيظهر لدى الإسباني

"رامون لول"، ما يهمنا هو أن الاستشراق الحالي ليس وليد الأمس القريب ، بل الأمس البعيد، فرامون لول عاصر القرن 13م، وأخذ عن المتصوفة الذين سبقوه أو عاصروه مثل : أبوأحمد الغزالي ، أحمد الغزالي ، القشيري ، ابن عربي ، الكلاباذي الخ...

لقد كان "غوته" أحسن ممثل للحوار بين الشرق الإسلامي و الغرب الألماني، في بيت من أبياته يقول: "من عرف نفسه و الآخرين لابد أن يعلم حينئذ .: أن لا انفصام لعروة بين مشرق ومغرب

" Wer sich selbst und andere kennt wird auch hier erkennen orient und okzident sind nicht mehr zu trennen

في مدح محمد إقبال للشاعرين جلال الدين الرومي و غوته في كتابه "بيام مشرق " يقول:

شاعر الألمان في روض إرم .: فاز بالصحة من شيخ العجم.

(.....)

قضى للعارف بالسر القديم .: ما وعى إبليس و الشيخ الحكيم.

(.....)

قد خلا فكرك في القلب السليم .: فأوجد الروح في الكون القديم .

(.....)

قد تجلى لسعيد ألمعي .: مكر إبليس و عشق الآدمي .(6)

لقد كان "غوته" يمثل ذلك النمط من المفكرين الذين كانت لهم صورة واضحة ، وفهم عميق للإسلام يصل في بعض الأحيان إلى تمثله ، بل وصل به الأمر إلى رفض قاعدة التثليث التي هي أساسية في الدين المسيحي بمختلف مذاهبه، والإيمان

بالوجدانية بل تعظيمها ، كما أن حديثه و شعره في الديوان الشرقي -الغربي ، الذي ألفه ينوه بالنبي محمد-ص-، ويذكر فضائله و مكارمه أكثر مما يذكرها شاعر مسلم، لقد كان متأثراً بالمشرق إلى حد الوله فهو يوظف الآيات القرآنية والأحاديث و المأثور من الحكمة الشرقية : إنه الاستشراق الموضوعي ، و الخطاب الواعي في إطار حوار الحضارات المبني على التعايش ، و الفهم ، و التفهم.

وقد وصف هاته الحالة الوجدانية بقوله:" في ميدان الأفكار يرتبط الكل بالحماس، وفي عالم الوقائع يرتبط الكل بالثابرة"<sup>(7)</sup> لم يقتصر التأثير العربي في الأدب و الشعر بل تعدى إلى الجانب العلمي كما هو معروف، بل وفي الحياة الاجتماعية والثقافية للأوروبيين ، و قد أفردت " زغريد هونكه " sigrid hunke " فصلا كاملا عن علاقة الشرق بالغرب و تأثر الإمبراطور " فريديريك الثاني " بالثقافة العلمية والدبلوماسية العربية ، في بلاطه كانت الثقافة العربية حاضرة ، بل وصل الأمر بالأميرات إلى اتباع الدين الإسلامي الذي تلقينه من حواريهن ، ولما اكتشف الإمبراطور هذا الأمر لم يبد امتعاضا و لا استنكارا ، لقد كان هذا المثال نموذجا للتآلف بين العربي - المسلم و الجرمني ، و قد ذكرت هونكه أن العربي يلتقي مع الجرمني في الرؤيا الواضحة و النافذة للطبيعة الواقعية للأشياء ، وهذا ما يختلف فيه مع علماء الغرب .

هذا النمط من التفكير الاستشراقي يعكس خطابا عقلانيا ، علميا ، غير عنصري ، يفسر دورة الحضارات، ويستجيب للحقائق التاريخية " فكل أمة لها ما كسبت و عليها ما اكتست ":- فالغرب في القرن الثالث عشر ميلادي كان متأثرا إلى حد كبير بأدبيات الشرق و سلوكه ، و نمط حياته ، و ذوقه الفني العالمي<sup>(8)</sup> .



## \*-الجانب الاجتماعي أو النهائية الحتمية للاستشراق التقليدي :

لم يهتم الاستشراق التقليدي كثيرا بمشكلات البنية الاجتماعية و لا حتى بقضايا الاقتصاد والسياسة ، لقد وصف المستشرقون النظام الاجتماعي الإسلامي كمجموعة وحدات عمودية منفصلة و مستقلة ذاتيا ، فضلا عن وجود نظرية أو حتى تصور للبنية الاجتماعية التي سموها إسلامية . قدم جيب و بون " . GIBB BOWEN" تصورا استشراقا جديدا ، بانقسام الحكوميين إلى وحدات عديدة شبه مستقلة ( مثل القبائل و الحرف المهنية و القرى والجماعات التي لم يتأثر استقرارها الاجتماعي بتقلبات الإمبراطورية ككل ، لم يأخذ المجتمع الإسلامي شكل الوحدة الاجتماعية المتكاملة بل تألف من فسيفساء من المجموعات الاجتماعية المعزولة والمكتفية ذاتيا ، لقد أعطى الإسلام الشرعية للمسيحيين (أهل الكتاب) و الاستقلال الذاتي و الحكم الذاتي للأقليات ( المسيحيين ، اليهود ، الأرمن ) ، فتألف في كل بلد فسيفساء من الشعوب<sup>(9)</sup> . لكن تلازمت نظرية المجتمع الفسيفسائي بنظرية الاستبداد الشرقي : فالتجزئية تتصل بالحياة المدنية لدى الجغرافيا المدنية الاستشراقية من حيث انقسام السلالات و الديانات و الثقافات حسب التصور الاستشراقي رغم وجود شيء من التضامن الاجتماعي .

ومن ثم تنتج نظرية الفسيفساء ( الاستبداد الشرقي و المدنية المنقسمة والنخب الدائرة ) صعوبة نظرية هامة حسب "بيرنر" :- توحيد النظام الاجتماعي من خلال آليات الطرق الصوفية و العلماء و الشريعة ( القيم الإسلامية ) و انقسامه بالنسبة للسلالة و التنضيد والرابطة .

لم تقتصر هذه النظرة الخاصة للتنظيم الاجتماعي الإسلامي على المؤرخين المستشرقين بل يعاد إنتاجها في الأبحاث المعاصرة لعلماء الاجتماع و علماء السياسة، وقد ظهر أن منهجية التحليل عند "بل" "BELL" الذي يعمد إلى التصنيف الفييري للطبقة و التي تعتمد على المرتبة و القوة التي تستخرج من تحليل "داهرندورف" "DAHRENDORF" و "لينسكي" "LINSKY" و "بارسونز" "PARSONS" و التي تعطي الأولوية للسياسي وللسلطة على حساب نمط الإنتاج . النظرية التعددية هي طراز سوسنيولوجي للنموذج الفسيفسائي التقليدي حيث يضاف مفهوم الشرائح الاجتماعية إلى قائمة المجموعات الاجتماعية الموجودة السلالة و الدين .

حسب فيير "VIWER" عرقلت البنية الفسيفسائية للمدينة الإسلامية و الروح العسكرية للإسلام عملية تطور الطبقة الوسطى خلافة من الصناعيين و التجار ، فكان الواقع الأبرز في التركيب الطبقي للمدينة الإسلامية برأي المستشرقين هو هيمنة الملاكين الجبايين الذين استمدوا دخلهم من الزراعة على حساب حياة المدن، في غياب برجوازية مدنية مستقلة ذاتيا .

تسود الفوضى و سوء الفهم تفسير المستشرقين للبنية الاجتماعية ، إذ يستخدمون مجموعة تظم أنواع عديدة من الشرائح المتوسطة و قد اجتهد المستشرقون لإثبات أن الإسلام لم يعادي التجارة أو التجار ، و أن الإسلام لم يكن حاجزا في طريق التطور الرأسمالي ردا على جدال (فيير) و (تاووني) .. أفضت محاولات المستشرقين إلى فرضيات متناقضة تماما ، حين حاولوا إظهار أن التجار "الذين وصفوهم خطأ بالبرجوازية" وجدوا في العصور الإسلامية الوسطى و أن الإسلام لم يتناف مع الرأسمالية .

فكرة التنضيد الاجتماعي ينظمها الفكر الاستشراقي بمعيار ثلاثة أنماط إنتاجية سابقة للرأسمالية: - الإقطاعي - الجبائي - الرحلي ، و يعتقد فيبر أنها فرضت قيودا على نمو برجوازية محتملة لأن الإسلام حسبه أضفى الشرف الاجتماعي على خدام الدولة ( الجنود و الموظفين ) بدلا من التجار ، فأصبحت التجارة في الإمبراطورية حصة جماعات الأقليات و خاصة المسيحيين و اليهود منهم .

نقصد بالاستشراق هنا ، عقدة المعتقدات و النظريات و المواقف التي تتخلل مساحات واسعة من الجغرافيا والاقتصاد و علم الاجتماع و ليس فقط الأعمال التقليدية للدراسات الإسلامية .

لمجتمع الغربي - كما لاحظنا سابقا - رمز للحركة من خلال الديمقراطية؛ والمجتمع الشرقي ، متخلف وراكض و متراجع منذ نشأته ( غياب الطبقة الوسطى ، غياب المدينة، غياب الحقوق السياسية ، غياب الثورات، فشل الحضارة الإسلامية في إنشاء رأسمالية أو توليد شخصيات حديثة أو تحويل ذاتها إلى ثقافة جذرية علمانية - عدم التماسك النظري في النمط الآسيوي للإنتاج - ) حين يرى الاستشراق في الإسلام إسمنتا يمسك بالفسيفساء المهترئة لمجتمعات الشرق الأوسط ، فإنه يصبح بذلك شبيها و بقوة بالنظرة الدوركهامية للدين كمصدر للوظائف التكاملية في النظام الاجتماعي .

علم الاجتماع كإنشاء للخطاب ، يحتوي على تقليد نقدي للذات يؤسس بانتظام على شكل السوسيولوجيا الانعكاسية ، أو السوسيولوجيا الجذرية ، أو السوسيولوجيا النقدية .

اتفق مع تيرنر بأن ما نحتاجه اليوم ، هو شيء غير الاعتراض ، على بعض المستشرقين الذين لم يكونوا حياديين أو موضوعيين أو أنهم انسحبوا من العالم

الحقيقي للسياسة في الشرق الأوسط إلى برج عاجي من فقه اللغة و الشعر  
والجماليات ..

بل ما تتطلبه نهاية الاستشراق من نقد أساسي للجذور النظرية و المعرفية  
للكتابات الاستشراقية التي تغلق التقليد القلم حول الاستبداد الشرقي و المجتمعات  
الفسيفسائية و المدينة الإسلامية ؛ نهاية الاستشراق تتطلب نهاية أشكال معينة من  
الفكر و إنشاء نوع جديد من التحليل<sup>(9)</sup>

ليس بالجديد أن نقول أن الحضور الثقافي الإسلامي في إسبانيا و الجزيرة  
الإيبيرية كان يمثل الثقافة "الغالبة" ، تجاه الثقافة الأوربية "المغلوبة" ، في نمط المعيشة  
و في اللغة ، و لكن توسع اتصال الأوربيين من خلال المساجلات والحروب ،  
واتساع الميدان المتاح لمزاج الفنان و الرحالة الغرائبي والحاج المؤمن و الفضولي  
الباحث عن اكتشاف جديد ، هو ما هز مواقع الغالب و المغلوب ؛ يؤكد على  
ذلك رودنسن " RODINSON " بقوله : - " منذ القرن الحادي عشر ميلادي ، ظهر  
الاهتمام بميدان الفلسفة و العلوم التجريبية التي أحدثت تغيرا في صورة العربي -  
المسلم بعد تعرف الغرب على العلماء العرب و المسلمين ، و بعد ترجمة الكتب في  
الفلسفة و الطب و الفلك و الرياضيات خاصة بعد فتح طليطلة سنة 1085م ،  
حيث أصبحت مركزا "علميا و ثقافيا " .

تتسم أعمال رودنسن بالثراء و التنوع ، و هو لم يرتبط بشخصيات محددة في  
التاريخ الإسلامي كما فعل ماسينيون ، بل رغب في التطرف إلى مواضيع أكثر  
شمولية حيث قصد الشرق للتعرف على المجموعات " الشعوب ، المناطق ، المجتمعات ،  
الثقافات ، الخ ... "

في إطار تاريخي ، و منهجه يندرج في إطار المنهج الجدلي ، الذي يفيدنا أن العلم ينتج من التناقض و من الأخطاء المصححة ، و كتابه المعروف " الإسلام والرأسمالية " كان هو مجال تطبيق هذا المنهج بامتياز .

الجانب السلبي للحروب الصليبية أنها صبغت في قالب من التعصب ضد " الكفار و الوثنيين " أي المسلمين - و هي تعابير تعبر عن الجهل ، و عدم الاحتكاك الذي ينتج عن ضعف الاتصال المرتبط بالنظام القيمي الديني المغلق ، و هذا الأمر تجاوز الإسلام كدين ليطل أصحاب الفرق و المذاهب المسيحية الأخرى ، العالم كان متدينا ، و سجله كان دينيا مترمنا ، و هذا لم يمنع من الصورة الإيجابية لصالح الدن الأيوي ، و ظهور " مستعمرة عربية " أقامها في إيطاليا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ميلادي " فريديريك الثاني " المحب للمسلمين ، والمعجب بثقافتهم و حضارتهم .. لكن في القرن السادس عشر ميلادي حين قام لورانس روفولوف برحلته إلى بلاد المسلمين و كتب نتائج هاته الرحلة المتعاطفة مع المسلمين و أنماط عيشهم ، طرد من وظيفته في أكسبورغ بألمانيا ، لتعارض ما كتبه مع المعايير المألوفة آنذاك و بعد اكتشاف ألف ليلة و ليلة ، و حكايات شهرزاد والسندباد البحري ، و ترجمتها في القرن الثامن عشر ميلادي تراجع التأثير الديني - الغيبي و حدث التثاقف بين شعوب الشرق و الغرب ، و هنا نشأت القوة التي أفضت إلى الاحتلال الأوربي التي استعادت ذاكرته حروب الجزيرة الإيبيرية ، والسلطنة العثمانية ، و كان رد الفعل عنصريا لم يترك مكانا للقيم والتصورات والأفكار .. ثم ظهر رينان " E / RENAN " الذي اعتبر الإسلام والمسيحية دينان عالميان على عكس الأديان والحضارات الآسيوية التي تعتبر " محلية " رغم ما تحفظ فيه من بعض الآراء الأخرى له و التي تتعارض مع الحقائق الواقعية .

إن القرب الجغرافي بين بلاد المسيحيين ( أوروبا ) و بلاد المسلمين قد أثر على أحكام و ممارسات كثيرة حيال أمم و شعوب و أديان في أوروبا و خارجها و على تماس مع مسيحييها حتى القرآن ترجم في حيز يسوده الجهل و الانحياز و التعصب .. بعد ذلك بدأت التيارات الأيديولوجية تكتسح هذا المجال، و حلت المغالاة في النسبية الثقافية محل الدراسات الأكاديمية العلمية الرصينة .

و كأن المناظرة أصبحت مختزلة في نظرية الداخل ( لجن ) ، و نظرية الخارج (المستشرقون و من ورائهم الغرب) هي التي تحدد زمننا و زمنهم ! و عالمنا و عالمهم ! و أصبح الربط سهلا بين الجزئي (الاستشراق) ، و الكلي (الغرب) في مفهوم واحد ، و من ثم أصبح " العربي- المسلم " كائنا ثابتا لا يتغير يتعرض لهذا الشر القادم من الغرب و من الاستشراق.

و إذا عزلنا الصورة المتوهمة و المتخيلة بأن الغرب اخترغ الشرق ، و نقوم بتحليل علاقة العرب و المسلمين بالعالم المعاصر، نلاحظ أنهم يرون بأنه يتسم بانحطاط أخلاقي و تفتت عائلي و بالتآمر من خلال السيطرة اليهودية على كل شيء، و انتشار مرض " السيدا " لكن هاته الظواهر نفسها موجودة في البلدان " الشرقية " .

يذكر أمين معلوف بأن الغرب كف على أن يكون صليبيا منذ سبعة قرون ، و هو علماني و صناعي حاليا ، ولكن العرب مازالوا يخوضون هذه الحرب المتوهمة ، فالعرب و المسلمين يخترعون أوروبا كعدو لا يموت بطريقة وهمية، فعدم موته يبرر لخصومه الحياة - كما يؤكد حازم صاغية - (11).

لذلك لا مناص من الاعتراف المتبادل بقيم الآخر ، و تجاوز الجهل الذي حدث في الماضي ، و نسيان الجور و تجديد المعارف ، و التقييم الموضوعي

للاختلاف، و لا بد من التفاهم و الاتفاق مكان الجدل العقيم و الصراع الذي انعكس على الوعي الجماعي للأمم المتصارعة ، فأصبحت ردود الفعل المتسرعة والأفكار المسبقة تأخذ مكان المعرفة الجيدة ، و لا بد من مصالحة على أساس برنامج مشترك للقيم ، من خلال حوار يرقى القيم الإنسانية ، والأخوة بين البشر ، بل حوار الصبر الذي يميز الدين الإسلامي عن غيره من الأديان (12). أما أهم وجوه الاستشراق الجديد فهم لويس ماسينيون و كارل بروكلمان الذي تتلمذ على يد ولهاوزن و بارتولد ، أما لاووست و كوربان و آخرهم أندري ميكال و جاك بيرك فهم يمثلون جيلا جديدا ربط بين العلوم الإنسانية والاستشراق كحقل معرفي أما ماسينيون فقد تخصص في موضوع التصوف الإسلامي ، و العمل الكبير الذي يشتهر به هو "الحلاج" الذي هو موضوع و مجال جديد يسمح بالربط بين التصوف كظاهرة ، و مجتمع العراق آنذاك ذو المسحة الإيرانية كفضاء و حقل واقعي ، فهو يكتب عن العرب ، و عن الصراع بين إسماعيل و إسرائيل ، من حيث أن التاريخ العربي يبدأ بدموع هاجر .. لقد كان منشغلا بالإسلام التراثي-العقدي مثله مثل لاووست و كوربان ، الأول تناول الإسلام السني (ابن تيمية و تاريخ الفرق الإسلامية) ، و الثاني تناول الإسلام الشيعي و التراث الفلسفي و الصوفي والإيراني . أما "ميكال" في كتابه الإسلام و حضارته من القرن السابع إلى القرن العشرين ، والذي قسمه إلى حقب متوافقة مع الواقع الزمني للمجتمع الإسلامي ، حيث قلص فيه من الثغرات الإخبارية التي كانت منتشرة في التاريخ الوصفي للمجتمعات العربية - الإسلامية التي لا تبرز الطوائف و الفئات الاجتماعية إلا من خلال الضرورة القصوى أثناء الاضطرابات و الأزمات التي تسمى مجازا بالفتنة ومهمته كأحد جغرافيين الإسلام المرموقين جعلته بكثير من الفطنة يتعرض إلى

الحرف و الممارسات و النشاطات الاقتصادية والتطور الثقافي للإسلام من الناحية  
المجالية ، كما تخطى عتبة الاستشراق التقليدي ، نتيجة لجمعه لشتات المعلومات  
الموزعة على المصادر التراثية الكبرى و المخطوطات التي تزخر بها المكتبات و التي  
تعكس التاريخ الاجتماعي للمجتمعات الإسلامية ، كما أول العلاقات الخفية  
وموازن القوى التي كانت تربط بين المصاهرة العائلية، و قيام الخلافة الإسلامية بعد  
الخلافة الراشدة التي لم تكن حيادية<sup>(13)</sup>

آدم ميتز Adam Mitz أحد عظماء الفكر الألماني يحلل القرن الرابع الهجري ،  
أو العاشر الميلادي، من خلال جوانب تعكس قطعا من الحياة الاجتماعية / الدينية  
كما كان يعيشها أهلها ، سواء من ناحية الدين أو العادات أو الأخلاق أو التصوف  
أو الأشراف أو العلماء و علاقتهم بالخلافة، و أحوال المعيشة ، و كما نلاحظ  
دائما، فإن طبيعة الاستشراق الألماني ينحو في تحليله إلى الميل بصورة واضحة  
وصادقة لتجليل الواقع التاريخي بطريقة موضوعية ، و هو مكتمل من ناحية البنية  
المنهجية للتحليل الاستشراقي الذي يعمد إلى استنطاق المصادر التراثية، تأخذ فيه  
السير والنظم أشكالا متواترة، و هي تعطي للخطاب الاستشراقي صورة محاكية  
للخطاب التراثي في عمومه و هذا ما نلاحظه أيضا عند درمنغهام Dermenghem  
الذي يستعرض الحياة الصوفية و السير الذاتية لعدد معتبر من أقطاب التصوف على  
ممر العصور<sup>(14)</sup>.

أما بل BELL الذي أشرنا إليه سابقا ، فدراسته عن الفرق الإسلامية في  
الشمال الإفريقي ، ليست دراسة أكاديمية بقدر ما هي تشریح للإناسة الدينية  
(الأنثروبولوجيا الدينية) التي تشرح الواقع الاجتماعي/الاقتصادي/السياسي ، برؤيا  
نافذة إلى العمق ، لقد كان ممتازا في تحليله ، فهو خطاب لاستشراق جديد ، تاريخي



في مضامينه ، ذو تركيب منهجي متناسق ، و ما زاده تألقا هو الترجمة الفريدة من نوعها لعبد الرحمن بدوي ، فأسلوبه في الترجمة يوحى و كأن الكتاب كتب باللغة العربية ، بسلاستها و دقتها و متانتها التي تبتعد عن التعقيد ، و نفس الملاحظة يمكن إدراجها في ترجمة عبد الهادي أبوريدة لكتاب "الحضارة الإسلامية"<sup>(15)</sup>

## \*- الحقول الاجتماعية للاستشراق ( نموذج المجتمع المغربي ونموذج الجزائر ) :

نعود إلى "بيرك" حيث برز لديه الاقتراب أكثر من المواضيع ذات الطابع التاريخي ، رغم كونها تضم بعض العلوم الاجتماعية مثل علم الإناسة (الأنثروبولوجيا) ، علم القانون ، علم الاجتماع ، علم السلالة البشرية ، علم الأنساب ، و هذا ما دفع بالاستشراق خطوات إلى الأمام ، حتى أصبح يطلق على "بيرك" نفسه بالمستعرب ، نظرا لموضوعيته ، و تمكنه من استيعاب و تمثيل الحقائق السوسيوولوجية خاصة تلك المنتظمة في دراسات وصفية "MONOGRAPHIES" في المنطقة المغربية بين 1930-1960 في كتابه من الفرات إلى الأطلس يتبين أن الكاتب له اطلاع واسع على الثقافة الإسلامية ، و تمكنه من تحليل المجال المغربي خاصة ، فالثقافة الدينية المغربية من ناحية علم الاجتماع الديني سواء في أشكالها الرمزية أو السيميائية (المصطلحات و الألفاظ المستعملة) لها دلالات ضاربة في القدم قدم حضارة العرب ، فمصطلحات الثقافة و القياسة و الفراسة ليست غريبة عن الثقافة العربية ، و نفس الأمر بالنسبة للمعارف التي تتصل بها ، أما الصراع بين الفقهاء و المتصوفة ، فقد انعكس على مجال العلاقات الاجتماعية ، و التمايزات الاجتماعية داخل المجتمع المغربي ، ففي حين أن الفقهاء كانت لهم الكلمة الفصل في الحضارة الأندلسية (محاكمة ابن رشد) ، و هم الذين كانوا يمثلون القيادة، فإن

المتصوفة استحوذوا على القاعدة الشعبية ، و من ثم فإن المرابطين و الاخوانيات الذين بنوا طريقتهم على التصوف ، كان لهم دعم شعبي سواء في الأرياف أو في المدن ، و قد كان المغرب الأوسط (الجزائر الحالية) ممثلاً لهذا الدور بامتياز (16).

أولى الاستشراق اهتماماً بالجزائر ، و حول هذا القطر هناك تقسيم للمجال بين عنصرين سلاليين :-عرب،بربر .. و من هنا ظهرت الكتابات المتناقضة في وصف العربي و البربري، فتارة يظهر الأول بأنه شجاع ، فارس، نبيل، و الثاني صارم ، و عقلائي مستعد للبيئة الحضرية، و تارة أخرى فإن العربي المشين ذي التقليد السياسي الاستبدادي يتعارض مع البربري الممحي للنبيل المقيم في حالة من الديمقراطية القبلية - ذكرها بوضوح "فاتان" J.C.Vatin في كتابه L'Algérie des anthropologues

لقد عمدت إلى اختيار "بورديو" P.Bourdieu من بين جمهرة من المستشرقين الذين كتبوا أثناء احتلال الجزائر ، لأنه الأكثر معاصرة ، و لأن هؤلاء العلماء - وفي بعض الأحيان الهواة و المغامرين و كتبة التقارير - في التخصصات الاجتماعية قد أشبعوا درسا و تحليلاً من طرف أساتذة التخصص، و المقبلين على الدراسات الأكاديمية العليا ..

لكنني سأتناوله من وجهة غير مألوفة ، و هو الاقتصار على الدراستين حول الجزائر ، فالأولى هي دراسة لبنيات المجتمع العميق و عناصر تكوينه(القبيلة - الأسرة - البنى الاجتماعية - السلوك والأخلاق الدينية - الثقافة ) ، يحاول هذا الخطاب أن يظهر كمنند بالاحتلال ( يسميه الاستعمار - وأنا لا أوافق على هذه الكلمة وحتى على العبارة المهجينة- كولونيالي-) الذي قام بترع الأراضي و تقسيم المجتمع و تجزئته و تشتيته ، و الآثار السلبية الناجمة عن ذلك.. لكن هذا الخطاب لم يكن

متجددا ، وإنما يدخل في سياق علم السلالة الاحتلالي الذي يعتمد على قواعد منهجية ثابتة في التصنيف، وذلك بتأثير المصادر و المراجع التي اعتمد عليها ، و التي لم يجعل مسافة بينه و بينها ، وهذا يبين أن التيار الجذري في المدرسة الفرنسية ، ومن بين ممثليه "بورديو" لا يفتأ أن يكون تلافقيا حين يتعلق الأمر بالخصوصيات الجزائرية ، فهو خطاب من طبيعة ثانية<sup>(17)</sup>.

في قسم من كتابه الثاني ، يقوم ببعض المقابلات لمعرفة التغير الاجتماعي، ويطرح عموميات لا تفتأ أن تصبح أحكاما متسرعة ، تثبت آراءه في كتابه الأول : "علم اجتماع الجزائر" ، فهو لا يستلخص من مقابلاته نقدا للنسق الاحتلالي ، بقدر ما همو نقد للأشخاص الذين يمثلون هذا النظام ، ولا نعرف من هم هؤلاء المستجوبين ؟ و ما موقفهم من الثورة التحريرية ؟ و رغم أنه يطرح بعض المظاهر السلبية التي مازالت منتشرة في مجتمعنا الجزائري إلا أن الخطاب ذي الطابع الاجتماعي لا يلبث أن يفقد بريقه حين يقارن بين الآمال و الحظوظ .. و لكن ما يهمننا في تلك المرحلة (1960) هو تغير القيم التي كانت تؤكد على مكانة المعرفة والمستوى التعليمي في صنع الآمال - حيث كان يعتبرها غير واقعية - إلى قيم جديدة منتكسة برزت في سنوات الفوضى و الجنون التي عاشتها الجزائر، والتي نسميها - مرحلة اللاتمايز - التي نعيش آثارها لحد الآن ، فاختلطت القيم و المعايير ، وهذه الرؤيا التي كان من المفروض أن تكون إستشراقية -وهي من صميم علم الاجتماع- لم نلاحظها عند "بورديو" ، حيث لم يصل إلى النتيجة المرتقبة لهاته الفئات الاجتماعية المقهورة بالمدن ، و أعطى للنسق الاحتلالي شهادة البراءة ، لكن هذه الرؤيا نجدها عند كاتب مثل "فرانز فانون F. FANON" «» الذي كتب عن "علم اجتماع ثورة"<sup>(18)</sup>

## الهوامش

- 1- ميشال جحا : الدراسات العربية و الإسلامية في أوروبا- معهد الإنماء العربي - بيروت 1982 .
- 2- E. SAID : L'orientalisme , l'orient créé par l'occident - ED/ Seuil 1980 .
- 3- P. LAND : Limite des tentatives de synthèse interculturelle - l'exemple de pourville et pham quynthe - 1998 . Internet 4 April 2000 .
- 4- E. SAID : Op. Citée
- 5 - صادق جلال العظم : الاستشراق و الاستشراق معكوسا - دار الحدادنة - بيروت 1981 .
- 6 - ب. فايشر : الشرق في مرآة الغرب - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر 1983 .
- 7- A. PARATE : Quelle Europe ? ED/ Julliard 1991 P. 381 .
- 8- S. HUNKE : Le Soleil d'Allah brille sur l'Occident - ED / La Maison des Livres - Alger 1987 .
- 9- H. GIBB ; H. BOWEN : Islamic society and the west - LONDON , OXFORD , University press 1950 .
- 10- ب. تيرنر : ماركس و نهاية الاستشراق ، ترجمة يزيد صايغ - مؤسسة الأبحاث العربية - بيروت 1981 .
- 11- ح. صاغية : الاستشراق - نظرة موضوعية - مجلة العربي ، العدد 345 ، رمضان 1415 الموافق ل ذ اير 1995
- 12 - Organisation ( PISAT ) : Le dialogue entre les chrétiens et les Musulmans - Internet - 4 April 2000 .
- 13 - س. حميش : الاستشراق الفرنسي في ركب العلوم الإنسانية - مجلة المستقبل العربي - العدد 162 ، بيروت 8 / 1992 .
- 14 - آ. ميتز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، المجلد الأول و الثاني ، ترجمة : -عبد الهادي أبو ريدة - دار الكتاب العربي ، بيروت 1967 .
- 15 - أ. بل : الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي إلى اليوم - دار الغرب الإسلامي - بيروت 1981 .
- 16- J. BERQUE : De.l'Euphrate à l'Atlas - T :I - ED/Sindbad - Paris 1978 /
- 17- P. Bourdieu : Sociologie de l'Algérie . P.U.F Paris 1980 .
- 18- P. Bourdieu : Algérie 60 structures économiques et structures temporelles ED/ e minuit 1977